مجلة قراءات | المجلد: 14/ العـدد: 01 (2022)، ص 553-574

أقانيم الكتابة عند جاك دريدا

Hypostase of writing from Jacques Derrida

نجاح منصوري[1]، صليحة سبقاق

[1]جامعة محمد خيضر بسكرة(الجزائر)

[2]جامعة محمد خيضر بسكرة(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/01/18 تاريخ القبول: 2022/03/11 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

يروم هذا المقال إلى استجلاء مفهوم الكتابة عند جاك دريدا وهذا من خلال استقراء الأقانيم الثلاثة التي تتشكل منها الكتابة كممارسة تفكيكية بغية التوصل إلى تحديد شامل لهذه الإيقونة الدالة؛ فالكتابة عند جاك دريدا تتجلى في ثلاثة أقانيم وهي كالأتي: الكتابة/ الفارماكون، الكتابة/ المكمل، الكتابة/ الأثر.

تمثل إشكالية الكتابة عند جاك دريدا مسارا تقويضيا لصرح الميتافيزيقا الغربية من خلال إعادة النور لإشكالية الكتابة بكل تفرعاتها ومفاهيمها وأثرها وتاريخها ومسائلتها لأركان الفكر المركزي الغربي الإقصائي من خلال قلب التراتبات المكرسة من طرف الخطاب الفلسفي الغربي الرسمي.

كلمات مفتاحية: الكتابة- إستراتيجية التفكيك- المكمل- الاختلاف.

Abstract:

This article aims to clarify the concept of writing when Jacques Derrida, and this is by extrapolating the three hypostases that make up writing as a deconstructive practice in order to reach a comprehensive definition of this symbolic function; Writing according to Jacques Derrida is manifested in three persons, which are as follows: writing / pharmacon, writing / subblementarity, writing / effect.

The problem of writing for Jacques Derrida represents a path of undermining the edifice of Western metaphysics by restoring the light to the problem of writing with all its branches, concepts, impact, history and questioning the pillars of Western exclusionary central thought through overturning the hierarchies established by the official Western philosophical discourse.

Keywords: Writing - strategy of deconstruction - subblementarity - difference.

المؤلف المرسل: نجاح منصوري، **الإيميل:** nadjahmansouri31@gmail.com

1. مقدمة:

تطرح مسألة " الكتابة" عند الفلاسفة (*) إشكالاًت معرفية متعددة وعميقة طرحتها الفلسفة الأولى على نفسها لحظة الاندهاش الأوليُّ؛ والمصاغ على شكل سؤال وجودي/ كونيَ/ معرفيّ مجهول المعالم والرؤى، هذا السؤال يتعلق مباشرة بمفاهيم الوجود/ " الأصل" (**)(وهبة، 2007، صفحة 67)أي البدايات الأولى لظهور الكتابة وتعلقها بالمدون الأكبر؛ هذه البداياتُ المختلفُ فيها زمانيًا ومكانيًا، ارتبطت بالمسائل الخلافية الآتية:

– كيفية بدء الوعي الأولي بمسألة الكتابة ومن ثمة علاقاتها بالتواجد الإنساني مات قبل وما بعد اللحظة البابلية(***)(دريدا، 2013، صفحة 67).

– نشأة اللغات وتعددها وتمددها على رقعة الكرة الأرضية عقب اللحظة البابلية وما نتج عنها من تبلبُل الألسنة، والإشكاليات الناتجة عنها مثل إشكاليات التواصل البشري/الترجمة/ الاختلاف/ الصراع/ التعايش/ التعدد/الآخر ... الخ.

– الإشكاليات الفلسفية/ الأسطورية/ الدينية، الخاصة بمسألة "الكتابة المقدسة"، وعلاقة الآلهة في وَهْب الإنسان " الكتابة"، و ارتباطها بالسر الإلهي المودع في "الكلمة/ اسم العلم" في كل من " التوراة"، و"الإنجيل"؛ إذ جاء في إنجيل يوحنا: «في البدء كانت الكلمة»(يوحنا، 1993، صفحة 139)، و«الكلمة تجسدت في اللحم الحي وصارت تسكن بيننا»(يوحنا، 1993، صفحة 140)أو ذلك السر المودع في "اللوح المحفوظ/ اللوح العلوي/ أو في سر القسم بالقلم" في القرآن الكريم.

– المفاهيم المتاخمة للدائرة اللغوية التي نتج عنهاالتمايز الحاصل في التمثيل اللغوي للصوت البشري عن طريق ما عرف بـ: التوسيم الأسطوري(*)/ التوسيم الرمزي (**)(ازوولد ديكرو ، جان ماري سشايفر، 2007، الصفحات 272-273)/ ووسم الأبجدية وعلاقتها بـ«السحر/ الدين/ التصوف...» (تودوروف، 2016، صفحة 74).

– الإشكاليات المعرفية التي طرحها الفيلسوف " أفلاطون" وتأثيرها اللامحدود على مسار الوعي الفلسفي الشائك المعقد/ المركزي/ العقلي/ الإقصائي؛ وإعادة النظر في كل هذا الإرث من طرف الفلاسفة المتأخرين الذين أرادوا تجاوز الميتافيزيقا الموروثة عنه وعن غيره من الفلاسفة الإعلام مثل: أرسطو ، هيجل، وصولا إله وسرل، نيتشه، هيدجر.

من ابرز من ناهض هذه الفلسفة الممتدة وعلى مدار قرون ،فلسفة "جاك دريدا المدعوة بـ"التفكيك[***](يول آخرون، دينيس سان- جاك، آلان قيالا)/ التقويض؛ فمن خلال هذه الفلسفة سنتناول بسط إشكالية الكتابة والبحث عن اقانيمها، والعلاقات المغيبة التي تربطها بما أفرزته أطروحات كل من : "أفلاطون"[*] و"جان جاك روسو"[**]، و "فرديناند دي سوسير"؛ فإشكالية الكتابة عند "جاك دريدا" ارتبطت في تشكلها اللامتناهي بما أقرته أطروحات هؤلاء الثلاثة على اعتبار أن أفكارهم واستخلاص وافتراضاتهم كان لها الأثر الأبرز و الأشمل والأقوى في تشكيل معالم مشروع " التفكيك" أي: محاولات تقويض صرح الميتافيزيقا الغربية من خلال إعادة النور والوهج لإشكالية "الكتابة" بكل تفرعاتها ومفاهيمها وآثارها وتاريخها، ومسائلتها لأركان/ أعمدة الفكر الميتافيزيقي الغربي المركزي/ الإقصائي، وإعادة التوازن للفلسفات الهامشية/ المهمشة؛ من خلال قلب التراتبات المكرسة من طرف الخطاب الفلسفي الغربي الرسمي.

ضمن هذه الرؤيا المنفتحة على قلب الفلسفة سنحاول فتح كوة على حدود الكتابة وإشكالياتها ضمن ثلاثة أقانيم وهي :

الأقنوم الأول: مفهوم الكتابة / الفارماكون.

الأقنوم الثاني: مفهوم الكتابة /المكمِّل

الأقنوم الثالث: مفهوم الكتابة / الأثر .

تتراكب هذه الأقانيم لتجسد الرؤية الاختلافية التي تمتاز بها تيمة الكتابة لدى " جاك دريدا" ومن خلال هذه الرؤية سنحاول طرح الإشكاليات الآتية:

- كيف بنى "جاك دريدا" خطابا فلسفيا مغايرا لخطابات أفلاطون ، جان جاك روسو، دوسوسير؟
- لماذا تشكل "الكتابة/ الفارماكون/ المكمل / الأثر" خطرا يهدد النظام / البنية/ النسق الفلسفي اللغوي ؟
- ماهي دلالات " الفارماكون/ المكمل / الأثر"؟ وما هي الآثار التي ستخلفها هذه المصطلحات في البناء المعرفي لإستراتيجية التفكيك؟

وللإجابة عن كل هذه الإشكاليات نبتدئ بأول أقنوم .

2- الأقنوم الأول: مفهوم الكتابة / الفارماكون:

يمثل مصطلح " الكتابة" Écriture عند " جاك دريدا" Jacques derrida مفهومًا غائما، ومتعديًا، وإشكاليا، فهو معطى يتناثر هنا وهناك، ميزته التوالد والتشعب، التعدي والاختراق، يخفي دلالاته وراء سحب الإدراك؛ فهو يلعب لعبة المرايا، الإنجلاء، والاختفاء.

إنه مفهوم يتعدى المنطق المألوف للمفاهيم الدارجة، إذ يتوسم القارئ دلالاته من ممارساته المتشعبة القائمة على الانخراط في اللعب، هذا اللعب الحر اللامتناهي أساسه المغايرة و الاختلافُ؛ إذْ نلحظ من خلال مجموع تفكيكاته التي تتراوح «بين مفاهيم العلامة والأثر والكتابة والترجمة والصوت والعقار واسم العلم والتوقيع والسياق والهامش والزمن والاستعارة والهبة والأنوثة والبكارة والابتكار [...] ونقد الميتافيزيقا والفينومينولوجيا واللاشعور»(الكردي، 2005، صفحة 24)، التمدد المفاهيمي الشامل الذي يقوض أسس التعامل الفلسفي مع مفاهيم المغايرة.

لقد بنى "جاك دريدا" مؤسسة تفكيكية قائمة بذاتها، لا تنفك عروتها، هدفها الاختلافيّ إيجاد سبل البناء منظومة لا يقينية تقلب المفاهيم والمصطلحات والأفكار وتعيد تشكيلها وفق منطق الاختلاف الدريدي؛ وتجلى هذا المنطق في عملية غرس لمفهوم جديد في بنية النص الأفلاطوني الذي انطلق منه ودعاه "بالفارماكون"ضمن كتابه "صيدلية أفلاطون".

يمثل كتاب " صيدلية أفلاطون" La pharmacie de Platon المشروع الثاني من مشاريع تفكيك الميتافيزيقا المركزية الغربية وحلقة تالية من حلقات تأسيس خطاب فلسفي مغاير لما اعتادته وألفته الأوساط الفلسفية في ذلك الوقت، ف "صيدلية أفلاطون" كتاب خطى به "دريدا" أول خطوة في سبيل اجتراح مسالك جديدة لتفكيك/هدم الخطاب الميتافيزيقي/الرسمي/المركزي/ المعترف به من طرف الهيئات العامة للفلسفة والممثل بمؤسسِهِ الفعلي "أفلاطون".

شكّل " أفلاطون" أول حلقة من حلقات الفلسفة الكلاسيكية، وأول فيلسوف تصل أعماله الفلسفية كاملة وهي أعمال تؤرخ وتوثق لأهم القضايا التي خاضتها الفلسفة، إذ أسس لنفسه مدرسة قوامها المحاورات بحيث تمثل أول نموذج لتوليد الدلالات والمعاني من خلال فن التحاور القائم على "الجدل" للوصول إلى ماهية الحقيقة، التي تشكل مبحثا من مباحث الفلسفة العامة، وضمن هذا الإطار العام الذي يمثله " أفلاطون" والمكانة التي حظيت بها فلسفته، جاء خطاب " جاك دريدا" ليُسائِلَ ويفكك ويهدم هذا الخطاب المركزي عبر إشكالية "احتقار الكتابة" و إدانتها وشجبها وتفضيل الكلام الحي المباشر و الكلمة

الحية فـ « كل هذه المحاكمة المقامة للكتابة، ينبغي أن نكف ذات يوم عن النظر إليها كتخيل ميثولوجي نافل، أو كزائدةٍ كان يمكن أن تستغني عنها المحاورة من دون خسران»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 18).

ولأجل تفكيك الخطاب الأفلاطوني المجحف بحق" الكتابة" قام " جاك دريدا" بمجموعة من القراءات التوليدية التي تثبتُ محاسن وايجابيات الكتابة بعيدا عما ذهب إليه " أفلاطون" والتي يمكن تصنيفها إلى:

*قراءة أفقية خارجية.

*قراءة عمودية داخلية.

*القراءة الأفقية الخارجية:

أول ما بدأ به " جاك دريدا" وافتتح به قراءته " لأفلاطون" هو استعراض الآراء التي ضمتها " محاوره" " الفيدروس" واستخلاصه لأهم الأفكار التي انبنى عليها حكم "أفلاطون" القاسي والمجحف وغير المبرر بخصوص عملية الإدانة والمفاضلة بين الكلام والكتابة والإعلاء من شأن الكلام على حساب الكتابة؛ إذ قام بالتركيز أولا على البناء الشكلي/ الخارجي للمحاورة، ثم الرد على التفسيرات التي ذكرها كل من " ديوجينسلاييرتيوس" Diogénelaerce وشلايرماخر Schleiermacher حول الفترة المحددة التي كتبت فيها هذه المحاورة، وكذلك البنية التأليفية لها، وأهم ما ورد فيها من أفكار عميقة، ورؤى وأحكام قاطعة، وحجج وبراهين تؤكد على سلبية الكتابة والأضرار التي تُلحقها بالمتعلم، ولقد جاء رد " جاك دريدا" على هذه التفاسير التي ذكرت من قبل: أن محاورة " الفيدروس"« محاورة سيئة التأليف»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 17)، وأن الزعم بأن « " الفيدروس" كانت المحاولة الأولى لأفلاطون، وأنها تنطوي على شيء ما صبياني»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 17)، فهو مجرد رأي لا يمكن الاعتماد عليه، والملاحظ أن في بنية هذا الرأي ما هو مغيب عن الأذهان وهو أن هذه المحاورة ليست بالقدر الكافي من المعرفة الحقيقية التي يمكن لـ "جاك دريدا" بناء تفكيك حولها.

يؤكد "جاك دريدا" بأن الكتابة هي لعبٌ حرٌ يمارسُهُ كل البشر أينما وجدوا وهو اللعب الأفضل والأنبل؛ هذا اللعب لا يتقبله " سقراط" ويعتبر بأن « البشر وهم ينقذفون خارج ذواتهم عبر المتعة ليَغيّبُوا عن أنفسهم، ينسوها، ويموتوا في لذاذة الغناء»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 19)، فالمرء حينما يكتب فإنما يخرج من ذاته/ روحه/ نفسه مما يجعله ينسى، هذا النسيان/ الغياب/ الصمت في بنية

"الكتابة" تجعل المتلقي لا يستطيع تحديد الحقيقة/ الحق/ القيم الحسنة/ الأخلاق ... وبذلك يتجه إلى المتعة/ اللذة وهذا ما يهدد عرش اللوغوس/ العقل ، الذي يجسده الكلام الحي.

يعرض "أفلاطون" وجهة نظره "للكتابة " إطلاقا من التمييز الحاصل بين "الكلام" و"الكتابة"، فالكلام هو الوسيلة المثلى للتعبير عن الأفكار؛ هذه الأفكار تنشأ بصورة حقيقية وحية أثناء التحدث؛ فالكلام له القدرة الكبرى في التأثير على السامع/ المتلقي عكس الكتابة التي معها تغيب السلطة الحية/ الروحية للتأثير في الآخرين؛ ولكن لما ذا انحاز "أفلاطون" إلى الكلام ونبذ الكتابة(*)؟

يؤكد "أفلاطون" على سلبيات ومظار الكتابة من خلال الأسطورة المصرية التي وردت تفاصيلها على لسان "سقراط" الذي سردها على مسامع " فيدروس" الذي قال بان هناك إله شرير يدعى "توت" وقد اخترع العديد من الفنون على غرار فن الحساب وأجزائه وعلم الهندسة وغيرها وصولا إلى اختراعه حروف الأبجدية التي سيكون لها الأثر الأكبر في حفظ الذاكرة من النسيان لذلك توجه بهذه الاختراعات إلى الملك/الإله "أمون" الذي قام برفضها وأرجعها للمخترع العالم "توت" الذي أكد بأن هذه الحروف ستسبب ضعفا مميتا في الذاكرة؛ إذ قال « إن هذا الاكتشاف الذي يخصكم سيخلق نسيانا في أرواح المتعلمين، لأنهم لن يستخدموا ذاكراتهم، أنهم سيثقون بالحروف الأبجدية الخارجية المكتوبة، ولن يتذكروا بأنفسهم وهكذا فان النوعية التي اكتشفتموها لا تساعد على الذاكرة بل على التذكر»(التاور، صيف 2014، صفحة 31)؛ وهذه أولى العيوب التي تخلفها الكتابة للعقل/النفس البشرية؛ فهي تزيح الحجاب العقلي عن مكانه الأصلي وبالتالي فالمعنى لن يكون حقيقيا لأنه سيضعف عمل العقل وبالتالي الذاكرة عوض تحصينها، ومن هنا كان المدخل الأساس "جاك دريدا" لاقتراح أن تكون الكتابة /فارماكونا لعلاج النسيان وبذلك سندخل عالم الطب والأدوية والعلاجات والعقاقير؛ إي نلج وبشكل علني وواضح إلى «منتصف أسطورة توت»»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 24)، التي ستمثل بنية الأساس في هدم الخطاب الأفلاطوني.

تمثل "أسطورة الكتابة" البنية العشوائية التي ستفتح باب النص على ما يسمح به التفكيك من هدم داخلي، وتوليد عشوائي للدلالات المغيبة والتي ستنخرط في مسار طبي أساسه مفهوم "الفارماكون" والعائلة اللغوية التي تتوالد منه فـ « الفارماكون هو حركة الاختلاف، موضعه، لعبُه (إنتاجه)، هو اخ(ت)ـلاف الاختلاف [مغايرته أو إرجاؤهُ] يخزن في عتمته [ودلالاته غير المحسومة] المختلفات والخلافات »»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 834).

هذه الاختلافات ترتبط بالبناء المضموني لنص المحاورة "الفيدروس" التي تحيلنا على القراءة العمودية الداخلية، فما هي معالم هذه القراءة؟

*القراءة العمودية الداخلية:

هي مجموع الأفكار والقراءات الاختلافية التي قام بها " جاك دريدا" في بناءٍ افتراضيٍ لتفكيك محاورة " الفيدروس"؛ إذ نصادف عند قراءة كتاب "صيدلية أفلاطون" مجموعة من الدلالات المتشابكة، المتعددة الجوانب، تجمع بين حركة الفلسفة وجمالية البلاغة، إذ قام "جاك دريدا" وعلى طول فصول الكتاب بإرجاء كل حسمٍ فيما يخص السؤال المركزي المفترض:«لماذا تقاوم الفلسفة فكرة أنها نوع من الكتابة»(كولر، 2007، صفحة 151)؛ وهل الكتابة عمل سيء وشرير وسلبي؟

ولأجل الوصول لإجابات يقينية عن هذا السؤال نجد بأن "جاك دريدا" قد قام بمحاولة تفنيدٍ لكل ما ألصقه سقراط/ أفلاطون من سلبياتٍ للكتابة عبر أربع قراءات يمكن تلخيصها فيما يلي:

– تحديده لإشكالية النسب/الانتساب المجهول للكتابة والإرث المصري/ اليوناني لعلاقة الكتابة/ اللقيط/ بالأب المجهول والمغتال (القراءة الأولى).

– تحديده لإشكالية النسيان الذي اتهمت به الكتابة ومحاولة إيجاد علاج له عبر دلالة "الفارماكون" (العلاج)، وطرح علاقات افتراضية بين مفهوم الفارماكون ومفهوم الذاكرة (القراءة الثانية).

– تحديده لإشكالية المشابهة وعلاقات الارتباط الخفي بين الكتابة/الفارماكون بفن الرسم، وهذا عبر العلاقة الافتراضية بينهما ومن ثمة الارتباط بين مفهوم "الكتابة"و"المحاكاة" وها عبر رسم الكلام الحي (القراءة الثالثة).

– تحديده لإشكالية تصنيف الكتابة إلى كتابة حسنة وكتابة رديئة وهذا عبر تفكيك المفاضلة بين الثنائية "الكتابة/ الكلام". ا(القراءة الرابعة).

حاول "جاك دريدا" عبر هذه التحديدات/ القراءات الأنفة الذكر رصد التقاطعات والعلاقات المخفية، والثغرات المحجوبة بين ثنايا المحاورة، والتي حاول " أفلاطون" إخفائها وهذا عبر البؤرة التي بعثرت كل الدلالات الواردة في جنبات وثنايا المحاورة وهي مفهوم "الفارماكون"، وتوليد العديد من المصطلحات المنتسبة إليه دلاليا/ بلاغيا/ لغويا ، فما هو "الفارماكون"؟ وما الأثر الذي سيقوم به لتفكيك البنية المنسجمة والمتكاملة للمحاورة ؟ وما عمل المفردات المنسلّة منه التي ستفتح باب الصيدلية/المحاورة على مصراعيه لدخول هذا اللقيط/ التائه؟

يمثل " الفارماكون" Le pharmakon أحد أهم مصطلحات "دريدا" زئبقية الدلالة، فهي كلمة يونانية تحمل في بنيتها الدلالية معنيين متناقضين إذ « يدلان معًا وفي آن واحد على السم والدواء أي " الترياق" وعلى الأذى والمعالجة»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 9)؛ هذه الكلمة ستأخذ وضعية الوسط بين الدلالتين المتناقضتين، إذ لا يمكن الحسم بشأن دلالتها ولا المفاضلة بينهما، إذ أنها تتأرجح دلاليا و« لا تتمتع بماهية ثابتة، ولا بخصيصة "خاصة"، [إذ] لا يمثل جوهرًا substance»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 81)؛ إنه يجمع في جعبته صورا متعددة بحيث يدل على:

- العقار Drogue يعالج آفة النسيان بالطرق العلاجية التقليدية إي بالطرق السحرية التعزيمية.

- السُّم/ السّحر/ الشّر لذلك يجب علاجه بالترياق، وبالعلم العقلي /الحكمة وعن طريق "شعيرة الفارماكوس" التي تُقْرَنُ بكبش فداءٍ، لتطهير المدينة/ الجسم المصابة بالسحر وبالشر.

- المخدر والعلاج الوهمي الذي يُهدئ الآلام ويوهم المصاب/ الكاتب بالشفاء؛ فالفارماكون/ الكتابة هي العقار الذي يُعالج النسيان في مقابل الطب الحقيقي القائم على العلم الذي يمثله هنا الكلام/ الكلمة الحية/الفلسفة التي تدعو إلى الابتعاد عن هذا العقار/ الكتابة.

هذه الدلالات المجترحة من قبل "دريدا" تدخلنا إلى الحقل الطبي/العلمي الذي يمتاز بالعقلانية والشفافية والسببية العلاجية التي يحتويها الجزء الطبي للفرماكون وبذلك ستبتعد هذه المفردة عن القدرات والخواص السحرية/التعزيمية/ الخيميائية التي حاول أفلاطون إلصاقها بالكتابة فهو « يقدم الكتابة كقوة باطنة وبالتالي مريبة، مثلها مثل ارتيابه من العرافة ومن المعوذين والمشعبذين وأساتذة السحر»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 51).

هذا الارتياب والخوف وكذا الأعمال التي كان يقوم بها القوم بذلك الزمن جعلت "أفلاطون" يفضل العلوم الطبيعية /العقلية لغاياتها النبيلة ، إذ تجلب الخير والعدل والفضيلة ومن هناك جاء حكمه على الكتابة مجحفا إذ اعتبرها مخربة للذاكرة، ولها تأثير سلبي على عملية الاستذكار، وهذا نظرا للتمايز الذي أقره بين الذاكرة المستحبة (الحسنة) والذاكرة المستهجنة « حيث يقابل أفلاطون بين ذاكرتين، الحسنة والقبيحة، الـmême والـ Hypomnésis الذاكرة الحية، تذكر أو إعادة جمع، أو ذاكرة داخلية ، أو حضور أمام الذات، ومن جهة أخرى ذاكرة خارجية، ميتة تحاكي المعرفة المطلقة وتأخذ اسم الكتابة»(عثماني، 2011، صفحة 37).

إن الطبيعة المادية للكتابة تعيق عمل الذاكرة فهي تخزن المعلومات في أحرفها المادية/الأوراق وبالتالي تجعل عملية الحفظ والتذكر والاستذكار تدخل عالم النسيان؛ وهذا لان الكلام/ الكلمة الحية هي من تقوم بذلك الدور الأساسي؛ فإذا نظرنا إلى الحقيقة فإن الكتابة تنتج خطابا يخالف العلم العقلي الذي تتظاهر "الكتابة" بأنها تملكه وهذا لأنها خارجية/برانية عن الذات مثلها مثل السوفسطائي الذي يخدعنا بخطاباته المزيفة لذلك نجد بأن جاك دريدا" يؤكد بان " أفلاطون" أقام المحاكمة للكتابة لان هذه الأخيرة « إنما تدين في المقام الأول السفسطائية»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 60)، ولكن لماذا الكتابة في دلالتها المجازية تنتسب إلى الفلسفة السوفسطائية؟

يجب " جاك دريدا" عن هذا التساؤل بالقول أن دلالات الكتابة/ الفارماكون تحمل في ذاتها معاني الإيهام/الزيف والظهور بمظهر جيد في الخارج ومظهر سيء في الداخل مثلها مثل السوفسطائي الذي يكتب خطابات لا تمت للحقيقة بصلة، فهو في الظاهر يحاول الوصول إلى الحقيقة بوسائل غير علمية وغير منطقية وهذا ما يتناقض مع الفلسفة السقراطية/الأفلاطونية.

ضمن هذا المشهد المسرحي المتناثر هنا وهناك سترسم الفلسفة التي يدعوها "سيد الفارماكون" — سقراط- بأنها سيدة الدلالة/ الحق /الحقيقة مسارا مهيمنا / مركزيا / متعاليا/ سيدا سيهيمن طويلا على مفهومات ومصطلحات الفلسفة الغربية المتعاقبة هو وجود كتابتين« كتابة حسنة: (طبيعية، حية، عارفة، معقولة، جوانية، ناطقة) مقابل كتابية رديئة: (مصطنعة، ميتة، جاهلة ، حسية، برانية، خرساء)»(دريدا، صيدلية أفلاطون، 1998، صفحة 110).

هذان هما نوعا الكتابة/ الفارماكون اللذان توصل إليهما جاك دريدا" بعد صولات وجولات من البحث اللغوي والقلب الترابي للمفهومات الميتافيزيقية التي كرستها الفلسفة الإغريقية؛ فبدل محاكمة الكتابة وتفضيل " اللوغوس/ الكلام/ المنطق" يتوصل " جاك دريدا" إلى أن ذاك التفضيل قد أخفى بداخله نوعين من الكتابة هاتان الكتابتان بكل محمولتهما المعرفية والمفاهيمية تتداخلان وتتشابكان فلا ندري أيهما الجيدة والأخرى الرديئة، هذا التداخل المفاهيمي سيعمل علة طبع / دمغ كل الآراء الفلسفية التي حاولت جاهدة وعبر مسارها الذي قدرته لنفسها أن تميز بين الكلام/ الكلمة الحية/ البذار المنتج/ الكلمة المقدسة/ اللوغوس وبين الكتابة العقيمة لتجد نفسها في مواجهة وأمام كتابتين؛ إحداهما الكتابة الأفلاطونية/ العقلية في مقابل الكتابة السوفسطائية/الذاتية/ الزائفة.

هذه هي أهم القراءات الواردة في كتاب " صيدلة أفلاطون" وهي قراءات منتجة لتصورات مختلفة انبثقت من هدم وتفكيك "جاك دريدا" لمحاورة " أفلاطون" وبناء أسس مغايرة انبنى عليها تفكيك "جاك دريدا" للمركزية العقلية "لأفلاطون".

ننتقل الآن إلى استجلاء معالم الأقنوم الثاني من أقانيم الكتابة لدى جاك دريدا" ويحمل عنوان " الكتابة/ المكمل" فماذا يقصد به؟

3-الأقنوم الثاني: مفهوم الكتابة /المكمل:

يعدُّ " جان جاك روسو" "J.J.Rousseau" الحلقة الثانية من حلقات عمليات الهدملأركان البيت الفلسفي، المركزي، الغربي، وهذا لما يمثله هذا الأخير من امتداد فلسفي/أدبي لأهم القضايا التي شغلت فكر "جاك دريدا" وهي النظرة الازدواجية الخاصة بمداليل الكتابة من وجهة النظر الأدبية والفلسفية "لجان جاك روسو".

خصص "جاك دريدا" قراءة خلافية/اختلافية لعصر "جان جاك روسو"، وكذا لمداليل الكتابة الأدبية لديه وهذا في محاولة لتفسير الازدواجية التي شابت موقف " جان جاك روسو" من مفهوم الكتابة والقائمة على الرؤية الأدبية / الذاتية لحالات الكتابة على اعتبارها "اعترافا"/ "متعة"/ "إغراء"/ "لعبا مخجلا"، وبين الرؤية الفلسفية التي تُدين وتشجب الكتابة وهذا في "محاولة" لتفسير كيفية نشوء اللغات واختلافها بين أهل الشمال والجنوب ضمن كتابه المعنون بـ" محاولة في أصل اللغات".

يمثل مفهوم الكتابة الأدبية عند الكتاب على اختلاف مشاربهم أفقا معرفيا/ ووجدانيا/ وحياتيا ينشده الكاتب في مسارٍ شائك المعالم، متعدد الأحلام والرؤى؛تتداخل في تشكيله الأزمنة المستعادة لحظة الإنكبابالخلق الإبداعي فالكاتبة ومن هذا المنظور هي محاولة لإطلاق عنان الزفرات الإلهية التي تسكن القلب الإنساني، هذا القلب ما يزال محفور كنقش منسي أو كنسمة تمر عليه.

هذه هي معالم الكتابة الطبيعية/ المقدسة/الحية، التي يصفها "جان جاك روسو" بـ «أنها كهنوتيّة hiératique قريبة من الصوت المقدس الداخلي الناطق بشهادة الإيمان، ومن الصوت الذي نسمعه عندما ندخل إلى داخلنا، [إنها] حضورٌ ممتلئ وصادق للكلام الإلهي في شعورنا الداخلي»(دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 81).

إن عالم الكتابة الرحب هوتجسيد لصوت إلهي صاعد في آفاق حالمة، و سرٌ من أسرار الكلمة الحية المودعة في الروح، وهي وجدان مفتقد للحياة الأمومية، «فمنذ مائة عام يحلم الكاتب بتكريس نفسه

لفنه في نوع من البراءة فيما وراء " الخير" و"الشر" ويمكن أن يقال في حيز ما قبل المعصية» (سارتر، 1990، صفحة 193)؛ هذا الحلم المفتقد على عتبات المعصية/ الخطيئة الأولى هو نشدانللعودة إلى رحم الحياة الأصلية/البراءة الأولى/ الجنة، ومن هنا وجدت الكلمة/البشارة/ الطهر كاستعادة للروح المفقودة.

تتجلى أزمة الكتابة/ الفقدان/ المعاناة في الحقل الإعترافي للكاتب "جان جاك روسو" في مجموع الصور التي تكبدها ذاته الشخصية المحرومة من الحالات الوجدانية المصاحبة لذاته المبدعة، والتي يؤكدها الاعتراف الافتتاحي لمؤلَّفه " الاعترافات"؛ ومن خلال هذا الاعتراف تبدأ رحلة التصوير الذاتي/النفس على حقيقتها بكل أخطاءها ورزاياها، بكل سموها وأصالتها وفي ذلك يقول: «لقد صورت نفسي على حقيقتها: في ضعفها ورزايتها... وفي صلاحها، وحصافة عقلها، وسموها...تبعا للحال التي فيها! ... لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسي، كما كنت أنت تراها أيها الخالد السّرمدي...»(روسو، دت، صفحة 09).

تنفتح قراءة " جاك دريدا" لـ" جان جاك روسو" انطلاقا من قراءتين مزدوجتين، القراءة الأولى (أدبية) وقراءة ثانية (فلسفية) وهذا ضمن الرؤية الخلافية التي يمكن دعوتها "بالقراءة التكميلية "؛ التي تستند إلى المفهوم المبتكر "لجاك دريدا" "المكمل" وهذا في كتابه " في علم الكتابة".

فما دلالات " المكمل"؟ وما تأثيره في بنية " الاعترافات"؟ ما العلاقة التي يقيمها هذا المفهوم مع جيرانه" الفارماكون" " الإرجاء" ؟

يعرضُ " جاك دريدا" في كتابه " في علم الكتابة" معانٍ متسلسلة/ متضافرةٍ/ غير محسومةٍ الدلالة لمصطلح " المكمل" Le Supplément، وهذا في إطار الخروج من أفق المتن الميتافيزيقي الذي ميز الفلسفة الغربية ومركزيتها العرقية وهذا عبر التأكيد على مفاهيم الأزواج الميتافيزيقية، مثل: واقعي/ خيالي، الواقع/ الحلم، الخير/ الشر، الباطن/ الظاهر الكلام/ الكتابة، المثال/ الصورة، الشرق/ الغرب، المذكر/ المؤنث، المدلول/ الدال ... إلى غير ذلك من المقابلات؛ ومحاولة بترها وإثارة الشك والريبة حول دلالاتها الامتدادية عبر مفهوم " المكمل/ الملحق/ الإضافة/ الزيادة.

يرتبط مفهوم المكمل برؤية "جاك دريدا" لرؤى "جان جاك روسو" المزدوجة للكتابة /الكلام؛ وللأفضلية المعقودة للكلام الحي/ المباشر/ الممتلئ/ المعبِّر عن النفس، في مقابل شجب ونبذ الكتابة التي تمثل خطرًا وتهديدًا للصفاء والنقاء والوحدة المركزية للمعنى،« ولهذا السبب فإنه [روسو] بوصفه ميالاً لإعادة بناء الحضور نجده يُعلي من قيمة الكتابة ويحط من شأنها في آن، ويتم ذلك في حركةٍ منقسمةٍ وإن كانت منسجمةٍ»(دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 284).

فالكتابة هي محاولة/رغبة دفينة لإعادة امتلاك للحضور المغيب والمستلب؛ هذا الحضور الذي مارسه "جان جاك روسو" عبر الكتابة؛ فقد أحس " روسو" أن الكلام يختلس الحضور وهذا لما كان يشعر به من خجل تجاه الآخرين « لذلك فإن الموقف الذي اتخذته من الكتابة لإخفاء نفسي يناسبني تمامًا، أمّا إذا كنت حاضرًا فلا أحد يمكن أن يتخيل ما سوف أكون عليه من الضآلة»(جونسون، 2015، صفحة 88).

إن عملية إخفاء النفس يناسب "روسو" وهذاما فعله عبر الكتابة؛ فالكتابة في مدلولها العامة تنسجم مع رغبات الظهور أمام الآخرين بشكل ممتلئ وكاملٍ وحاضرٍ، وهذه الرغبة هي صورة تمثيلية للكلام المفترض، ولكن الملاحظ أن الكلام هنا هو في حالة نقضٍ للحضور والتمثيل بالنسبة "لروسو"، ولذلك تصبح الكتابة رمزًا للحضور والتمثيل بدل الكلام ومن هنا تنبثق صورة المكمل الخطير ف « مفهوم المكمل والذي يحدد هنا مفهوم الصورة التمثيلية، يحتوي في ذاته على دلالتين يكون تعايشهما سويًا أمرًا غريبا وضروريا في آن، إن المكمل يُضاف، إنه فائضٌ، امتلاءٌ يثري امتلاءً آخر، إنه أوجُ الحضور، إنه يجمع الحضور ويراكم»(دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 288)الدلالات؛ فالمكمل هو تلك الحركة المتأرجحة بين الظهور والغياب، وهو انتهاك صارخ لمبدأ الموحدة الكلية للكلام، إنه:

-صورة تمثيلية للكتابة بوصفها اختفاءٌ للحضور الطبيعي، هذا الحضور هو تضامٌ لما هو: طبيعي/ أصيل/ داخلي/ عقلي/ تأسيسي/ هوياتي، وفي الآن ذاته هو: صورة حقيقية لغياب ما، هذا الغياب/ الإرجاء هو دائما نقيض لما هو: صناعي/ فرعي/ خارجي، عاطفي/ هامشي/ اختلافي؛ إنه « وسيلة خطيرة/ إنقاذا مهددًا/ إضافة تقنية/ حيلة اصطناعية ومضللة»(دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 287).

ولأجل التوصل لأهم دلالات " المكمل" نقترح هذا الجدول الذي يُجمل لنا الصور المتناقضة والمتضافرة للمكمل والواردة بشكل متناثر في كتاب "جاك دريدا" " في علم الكتابة".

	صور " المكمل"
الصورة الأولى الكلام/ الكتابة	– يمثل الكلام تجسيدًا للحضور، حضور الذات/ النفس، أما الكتابة فهي تجسيدٌ للغياب، غياب النفس/ الذات. – في حالة روسو تنقلب هذه الصورة فتصبح الكتابة الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالكلام أو استعادته لذلك تصبح الكتابة ضرورية، هامة، لإعادة امتلاك الحضور؛ أي حضور الذات في مواجهة الآخرين، رغم موقف روسو المناقض الذي يعتبر الكتابة تمثيلا للكلام، فالكتابة خطيرة لأنها تحجب العقل/ الفكر/ الحقيقة عن الآخرين.
الصورة الثانية	يمثل المكمل صورة للإضافة وللنيابة.

الإضافة/ النيابة	– إن المكمل بصفته نائبًا ووكيلاً فهو أدنى رتبة، ويقوم مقام شيء، فهو لا يمكنه أن يمتلئ بنفسه، ولا يمكن أن يكتمل إلا إذَا سُمِح بأن يمتلئ لعلامة وبواسطة توكيل، فالعلامة هي مكمل للشيء نفسه. – كذلك هو الكلام/ الكتابة، فالكتابة هنا تنوب عن الكلام، والطبيعة تنوب عن الثقافة، الأم البديلة تنوب عن الأم الحقيقية ...
الصورة الثالثة صورة الطبيعة/ الأمومية	عَانَى " جان جاك روسو" في حياته الشخصية / الواقعية من فقدان للأم ولصورة الأم الطبيعية فبحث عن بديل عنها، ولكن هذا البديل لن يحقق التعويض المرغوب؛ فالأم الحقيقية وصورتها لا يمكن تعويضها مثل الطبيعة التي يعيش فيها الإنسان فلا يمكن تعويضها، لذلك قال: " روسو" في كتاب " إميل":« أن عناية الأم مثل عناية الطبيعة لا يمكن أن يكون لها بديل». ورُغم ذلك نجد بأن " روسو" بحث عن " مكمل" لهذا الفقدان والحرمان عبر خلق بديل واقعي تمثل في شخصية " ماما" التي حلت محل الأم الحقيقية/ الطبيعية. فصورة الأم البديلة هي صورة لخداع "الطبيعة- الأم" لذلك تمثل هذه الصورة خطرًا/ خطرًا للتمثيل الحقيقي الحاضر/ خطرًا للإكمالِ.
الصورة الرابعة سورة الاستمناء	– لقد ارتبط مفهوم " الاستمناء" بالحياة الجنسية " لجان جاك روسو"، وهو نشاط كان يمارسه " روسو" في حياته الطبيعية، فهو صورة من صور المكمل؛ إذ يتخذ صورة مكملة للمعاشرة الجنسية مثلها مثل الكتابة التي هي صورة مكملة للكلام، وهذا من أجل الوصول إلى الرغبة في الحضور. هذا الحضور المغيب هو ذاته اختلاف مرجئ؛ فالاستمناء عند روسو مستهجن بوصفه وسيلة لغش الطبيعة وإحلال لصورة (الغياب) وهذا في صور حضور الشريك الجنسي. ولكن من ناحية أخرى هو تعويض لهذا الغياب الذي يعتبره أمرًا مريحًا وفاتنا وله جاذبية خاصة رغم الخجل والرهبة، اللذان عانى منهما "روسو"؛ فغياب المرأة يمنح مباشرة تملكها خياليا، بينما التعامل مع حضورها يؤدي إلى مواجهة الاختلاف/ الإرجاء.

تمثل هذه الصور الأربعة الدلالات المنبثقة من ممارسة التفكيك الممثلة هنا بـ "المكمل" وهذا في إطار تفكيك التمركز العقلي Logocentrisme في الفلسفة الأوروبية، التي تولي اهتمامًا منقطع النظير للكلام/ الصورة السمعية، الحضور المباشر/ على حساب الكتابة/ الصورة الغرافيكية/ الحضور المغيب، وهذا في حركة منقسمة على ذاتها تبحث عن إيجاد جوهر ثابت ومتعال وحاضر دائما، هذا الحضور المتعدد الأوجه والدلالات هو في حالة "جان جاك روسو" مفقود/ مغيب/ ومحاولة استعادته تمثل إرجاءً واقعيا مرتبطا بحياته الشخصية.

هذه هي القراءة الدالة/ التفكيكية لـ " جاك دريدا" لـ " جان جاك روسو" وهي محاولة الاختراق بنية مجموع أعماله التي تكرِّس الأفضلية للتمركز العقلي، على حساب الكتابة التي تظهر في الأخير لتكمل وتحتل المكانة الموازية لها للكلام وهذا عبر فكرة " المكمل".

ننتقل الآن إلى استعراض الأقنوم الثالث من أقانيم الكتابة عند "جاك دريدا" والمعنون بـ" مفهوم الكتابة/ الأثر والسؤال المطروح: ماذا يقصد بهذا المفهوم؟ ماهي معالمه؟ وما هي ارتباطاته المعرفية والفلسفية بالمفاهيم الأخرى؟

4-الأقنوم الثالث: مفهوم الكتابة / الأثر :

يفتتح "جاك دريدا" مفهومه الخاص لـ "الكتابة – المفهوم الضيق والموسع- من خلال الازدراء الذي منيت به الكتابة من طرف الفيلسوف "أفلاطون"، واستمرار هذا الازدراء/التحقير/النبذمع فيلسوف الأنوار "جان جاك روسو"، إلى أن حطّ رحاله في محطة "علم اللغويات" الممثل بأطروحات "فردينان دي سوسير"، وهذا في إستراتيجية تفكيكية مدارها مساءلة الفكر الغربي الجانح إلى إثبات مركزيته المعرفية والعرقية والحضارية على حساب الفكر المغاير وهذا من خلال الإقصاء الذي تعرضت له الكتابة على حساب الاهتمام بت"الكلام" المصدر الأولي للحكمة.

يعتقد "جاك دريدا" أن "الأفضلية" التي منحت للغة المتكلمة (الكلام/المنطق/ اللوغوس) على حساب اللغة المكتوبة (الكتابة/ الميتة/ الجامدة)، والقمع الذي تعرضت إليه"الكتابة" هو الوجه الآخر/ المغيب/المخفي من مركزية /عرقية/ لغوية/ صوتية ضاربة في عمق الفكر؛ هذا الفكر القائم على « المركزية الصوتية/العقلية التي تؤكد أن الكلام هو المعبر بامتياز عن الفكر» (التاور، صيف 2014، صفحة 35).

لقد امتدت هذه المركزية الفلسفية/العقلية إلى حدود جديدة أساسها "أطروحات علم اللغة"؛ فكيف تجلت رؤية علم اللغويات للكتابة؟ وأي إستراتيجية اتخذها "جاك دريدا" لتفكيك الخطاب الألسني لـ "دي سوسير"؟

تتأسس رؤية «علم اللغويات» للكتابة من خلال الرؤية الخاصة لأطروحات أب اللسانيات "فردينان دي سوسير" ولتي يمكن تعدادها فيما يلي:

- أن "علم اللغة"، هو ذاك العلم الذي يهتم بدراسة نظام اللغة من الداخل؛ ويرتبط هذا الاهتمام بالشكل المنطوق للغة، ولذلك ميز " دي سوسير" بين"اللغة" Langue، و" الكلام" Parole واهتم دراسة البناء الصوتيالذي عدّه المكون الأساس للغة.

- ارتبط مفهوم " الكتابة عند " دي سوسير" بالنظام الخارجي لدراسةاللغة، على اعتبار الكتابة هي الصورة الخطية للغة، فقد اقتصر رأي " دي سوسير" بشان أهمية الكتابة في مسألة تمثيلها للغة ، إذ قال بأن « الكتابة –مع أنها لا تمت بصلة إلى النظام الداخلي للغة– تستخدم كثيرا لتمثيل اللغو أو التعبير عنها»(سوسير، 1985م، صفحة 42)، لذلك لا يمكن للقارئ إهمال الكتابة.
- يؤكد " دي سوسير" على الطابع التمييزي بين "اللغة" و"الكتابة " فهما « نظامان متمايزان من الإشارات»(سوسير، 1985م، صفحة 42)، والهدف الأساس لعلم اللغة « ليس الصورة المكتوبة والصورة المنطوقة للكلمات بل يقتصر هذا الهدف على الأشكال المنطوقة»(سوسير، 1985م، صفحة 42).

لقد اجمع "فردينان دي سوسير" كل الصفات الأساسية للكتابة وهي الصفات التي تؤكد المكانة المتدنية لها وفي المقابل المكانة الفضلى للصوت/الكلام ويمكن تلخيص كل ما يميز الكتابة والذي من صفات سيئة في هذا المخطط:

الكتابة

1- هي نظام خارجي للغة.
2- هي تمثيل للغة وتعبير عنها.
3- لا يمكن لها أن تدخل ضمن نظام "علم اللغة"
4- هي تحجب الرؤية الفاحصة والعلمية للغة.
5- هي التي تخلق وحدة وهمية بينها وبين الصوت.
6- يرتبط تعَلُّم الكتابة أولا بتعلم الكلام، فالكلام هو أصل وجوهر ثابت وتقليد شفهي.
7- تطمس المعالم الحقيقية للغة، وتكسب اللغة رداءًا مزيفا
8- هي شيء مصطنع.

إن الصفات التي اكتسبتها الكتابة لدى "دي سوسير"، ستمثل المفتاح الذي سيفتح به "جاك دريدا" النظام الصوتي وهذا من خلال مفهوم الأثر ومخلفاته في تقويض المركزية الصوتية/ العقلية؛ فما هي دلالة هذا المصطلح؟ وكيف سيؤثر في البناء المركزي اللغوي؟

غن معالجة مفهوم الكتابة من المنظور التفكيكي يحيلنا إلى المحاولات المتعددة لإعادة بناء أسس جديدة خارج الأطر المتفتقة عن "الابستيمية" وعن "الميتافيزيقيا القائمة على مركزية الكلمة"، هذه الأخيرة تستخدم الكلمة بوصفها أداة صوتية، خطية هدفها توصيل الكلمة المنطوقة، أي الكتابة الممثلة للكلام الحي/ الممتلئ والدال على الحضور، هذا الحضور الذي شغل كل الفلاسفة فحاولوا تثبيته بالكتابة على اعتبار الكتابة المثبت الخطي للغة ؛ أما المفهوم التفكيكي للكتابة فيتلخص في مفهوم الكتابة الأصلية(*) Archi-écriture التي تعد بمثابة النظام الذي يؤسس للعملية الأولية التي تنتج اللغة من خلالها اختلافها/ مغايرتها".

يأخذ " الكتابة الأصلية" معناها ودلالاتها الموسعة من صميمي مفهوم الاختلاف " La différence هذا الاختلاف الذي يحمل دلالات متعددة ومغايرة لكل المصطلحات فهو المفهوم الخارج عن كل التحديدات المنطقية، الفلسفية، اللغوية، ومن مميزاته انه يهدد الصفاء والنقاد؛ ويبث الشك والريبة ويبدد سلطة الكلام الحي/ المتمركز حول العقل «والاختلاف [...] لا يمكن التفكير فيه دون اثر »(دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 140)؛ هذا الأثر Trace (*)يتقارب معرفيا ودلاليا، لغويا ونحويا، مع الطبيعة المتمايزة للكتابة الأصلية/ البدئية، باعتبارهما متلازمان ومتكاملان لإحداث تغاير في بنية "الكتابة" بمعناها المتداول؛ إذ يرى "جاك دريدا" أن كلمة الأثر «ينبغي لها أن تجعل من نفسها مرجعًا لعدد من أنواع الخطاب المعاصر التي تنوي التعويل على قوتها»(دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 159)، هذه القوة الدلالية الإختراقية متأتية من خصائص متعددة تقارب دلالة «ذلك المفهوم الموجود في قلب كتابات ليفيناس(**)levinas(الولهازي، ربيع-صيف،2007، صفحة 91).E الأخيرة ونقده للأنطولوجيا»(الولهازي، ربيع-صيف،2007، صفحة 91).

ينفتح مفهوم "الأثر" على مجموع الخطابات المركزة حول اللوغوس/ المطلق/ الكلام/ الحضور؛ أي كل ما توصل إليه الفكر الغربي المنطقي الذي يعد كل منطق مغاير عن ساحة تمركزه وكأنه شرٌّ متطاير يتدخل في بنية متكاملة لا يشوبها النقص ولا يعتريها الشك والتذبذب، بنية متعالية(***)(دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 88)، مطلقة، ترفض أي بناء جديد يخترق ساحة وجودها.

يمثل " الأثر" قوة تتغلغل في بنية الخطابات المألوفة فتحاول وضع أسسها في قلب الإستراتيجية التفكيكية لمبادئ وأفكار وأحكام "دي سوسير" وهذا عبر "إستراتيجية القلب"؛ أي تحريف واستبدال خصائص ومميزات وأحكام علم اللغة الحديث بأحكام وإمكانات "علم الكتابة" المفترض ف «بواسطة إحلال لن يكون إلا لفظيا، ينبغي أن نستبدل بعلم العلامات السيمولوجيا علم الكتابة في برنامج دروس في علم اللغة العام»(دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 131).

تفتح عملية الإحلال/القلب اللفظي الباب على مصراعيه للبدء في إنتاج مفاهيم/ دلالات موازية للمنطق المركزي السائد الذي نبذ الممارسة الكتابية وعدها إضرارا بالمنطق التمركزي الصوتي المنتزع من سلطة اللوغوس ومن ضمن هذه المفاهيم المبتكرة مفهوم " الاخ(ت)لاف" La différance الذي سيمثل القوة التخريبية الهادمة للمنطق الفلسفي/ المركزي / الإقصائي/ الغربي، فما دلالة هذا المصطلح؟

يدل مصطلح الاخ(ت)لاف على معنيين متخالفين، فهو تحريف/ تحوير كتابي للكلمة الفرنسية "Différence" ويدل المعنى الأول على«الإرجاء الذي يأخذ بعين الاعتبار الزمن والقوى في عملية تقتضي حسابًا اقتصاديا ولفًا ودورانًا وتأخرًا »(بنعبد العالي، 2005، صفحة 30)، أما الدلالة الثانية لهذا المصطلح فهي تدل على «الخلاف واللاتطابق الذي يقتضي مسافة وبونًا وابتعادًا»(بنعبد العالي، 2005، صفحة 31).

يتخذ مصطلح "الإخ(ت)لاف" /"الإرجاء" وضعيات شائكة الدلالة، تخالف القانون الذي ينظم مسائل تشكيل المصطلحات وكيفية كتابتها لغويا، إنه مفهوم يفارق المفاهيم المألوفة التي شاعت في الحقوق المعرفية والفلسفية على السواء فهو مصطلح يطرق المناطق اللامألوفة ويسير باتجاه المجهول المعرفية، فيحدث رجرجة في كل مسلمة فلسفية؛ انه المصطلح الدائم الترحال والذي يقيم في اللامجهول الفلسفي والانطولوجي؛ غنه المفهوم الذي يخترق البنيات التي تدعي امتلاك "الحضور" الذي يتخذ أشكال المطلق /العقل اللامتناهي(وهبة، المعجم الفلسفي،معجم المصطلحات الفلسفية، 2007، صفحة 533)[*]/ التعالي إلى غير ذلك من المصطلحات ذات الدلالة القطعية.

يعمل مصطلح "الإخ(ت)لاف" على كسر التراتبات الميتافيزيقية التي شاعت واتخذت شكل الأزواج «المفهومية [...] التي يتمحور حولها الفكر الميتافيزيقي الغربي والتي تحيل إلى"طوابق" وعلاقات متراتبة محكومة بالتوزيع إلى أعلى/ أسفل، واقعي/ خيالي، [...] الكلام/ الكتابة، المثال/ المادة»(دريدا، الكتابة والاختلاف، 1988، صفحة 27).

لقد حاول " جاد دريدا" عبر هذا المفهوم المبتكر تجاوز الأزمة التي خلفتها هذه التراتبات والتي تأبى إلا أن تقيم في هذا التعارض الميتافيزيقي، ولذلك عمل " جاك دريدا" على الخروج من هذه الدائرة المفاهيمية باتخاذ سبيل جديد وهو اجتراح أفق متجدد ولا نهائي تعبر عنه هذه الكلمات/ المصطلحات غير القابلة للحسم indécidables فتنزع اليقين، والترابط، والانسجام، ,الوحدة وتستبدلها بمفاهيم/ مصطلحات مزدوجة الدلالة مثل مفاهيم الفارماكون، المكمل/الملحق ، الأثر وصولا إلى مفاهيم الكتابة "الأصلية"، "الإخ(ت)لاف"، " علم الكتابة" هذا الأخير الذي يقيم في بنية الكتابة بمفهومها الموسع، كتابة تشق المركزية الغربية وتنزع عنها قداستها انطلاقا من مميزاتها الاختراقية وبأسئلتها المحرقة « أين تبدأ الكتابة؟ متى تبدأ الكتابة؟ أين ومتى كان الأثر والكتابة بوجه عام [...] أين ومتى ننتقل من كتابة إلى أخرى، من كتابة بوجه عام إلى الكتابة بالمعنى الضيق، من الأثر إلى الخط، ثم من نظام كتابي إلى آخر؟ »(دريدا، في علم الكتابة، 2008، صفحة 173).

هذه هي مجموع الأسئلة التي تطرحها الكتابة الأصلية والتي تعلن «نهاية الكتاب وبداية الكتابة»(*)، نهاية الكتاب بما هو المحاكاة الجيدة أو السيئة للصوت الحي، واللوغوس الحاضر، لكن متى تبدأ الكتابة؟هذه هي أهم الدلالات التي تكتنف مفهوم الكتابة/ الأثر ومعها تنغلق دائرة التفكيك المنطق الفلسفي المركزي الغربي.

5-خاتمة:

تأسيسا على ما ورد ذكره يمكن القول بأن:

- مفهوم الكتابة عند " جاك دريدا" الموسع قد انبثق من الخرق/ التجاوز الذي تبنته الميتافيزيقا الغربية في بنيتها المعرفية والممارسة الإقصائية التي أقامها " أفلاطون" في محاورته "الفيدروس" واستمرت هذه الممارسة مع أطروحات " جان جاك روسو" في كتبه وخاصة كتابه " محاولة في أصل اللغات"، إلى أن تصل هذه الممارسة إلى الأطروحات التي قدمها " فرديناند دي سوسير" في كتابه " علم اللغة العام" وهذا في سبيل تجاوز المشروع الميتافيزيقي القائم على مركزية العقل/ المنطق / اللوغوس/ الصوت وخلخلته من الداخل.
- لقد تأسس المعمار الفلسفي من مجموعة من الممكنات المفاهيمية التي ابتكرها " جاك دريدا" والتصقت سريعا بكل ممارسة تفكيكية على غرار مفهوم الكتابة / الفارماكون الذي كان

المهماز الذي ارتجت له أركان البيت الأفلاطوني، وكذا المكمل/ الملحق الذي انغرس كبذرة اختلافية في بذار " جان جاك روسو"، وكذلك الكتابة/ الأثر الذي انشطر له مدلول العلامة اللغوية عند " فرديناند دي سوسير" ليكون بذلك الاشتغال الفعلي لتفكيك الفلسفة /اللغة من داخلها.

6-قائمة المصادر والمراجع:

1. ازوولد ديكرو ، جان ماري سشايفر. (2007). *القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان* (المجلد 2). (منذر عياشي، المترجمون) الدار البيضاء المغرب، بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
2. إنجيل يوحنا. (1993). *العهد الجديد،إنجيل يوحنا* (الإصدار ط30). بيروت، لبنان: جمعية الكتاب المقدس.
3. بربارا جونسون. (2015). *مدخل إلى التفكيك، ضمن الكتاب الجماعي: في نقد التفكيك نصوص مختارة مع مقدمة نقدية شاملة* (المجلد ط1). (عبد المنعم عجب ألفايا، المترجمون) الجزائر، بيروت، الرباط: منشورات الاختلاف، منشورات الضفاف، دار الأمان،.
4. تزفيتان تودوروف. (2016). *نظرية الأجناس الأدبية، دراسات في التناص والكتابة والنقد* (الإصدار ط1). (عبد الرحمن بوعلي، المترجمون) دمشق، سوريا: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.
5. جاك دريدا. (1988). *الكتابة والاختلاف* (المجلد ط1). (كاظم جهاد، المترجمون) دار توبقال للنشر.
6. جاك دريدا. (2013). *ستراتيجية تفكيك الميتافيزيقا (حول الجامعة والسلطة، والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة.* (عز الدين الخطابي، المترجمون) المغرب: إفريقيا الشرق.
7. جاك دريدا. (1998). *صيدلية أفلاطون.* (كاظم جهاد، المترجمون) تونس: دار الجنوب للنشر.
8. جاك دريدا. (2008). *في علم الكتابة* (الإصدار 2). (أنور مغيث، منى طلبة،، المترجمون) القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة.
9. جان بول سارتر. (1990). *ما الأدب؟* (المجلد ط1). (محمّد غنيمي هلال، المترجمون) القاهرة، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
10. جان جاك روسو. (دت). *اعترافات جان جاك روسو.* (حلمي مراد، المترجمون) دمشق، سوريا، بيروت،لبنان،: دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع.
11. جوناثان كولر. (2007). *التفكيك 1، ضمن كتاب: البنيوية والتفكيك، مداخل نقدية* (المجلد ط1). (حسام نائل، المترجمون) عمان ، الأردن: أمنة للنشر والتوزيع.
12. شكري الولهازي. (ربيع-صيف،2007). "دريدا وتفكيك الميتافيزيقا". *مجلة الفكر العربي المعاصر* (ع141- 142).
13. عبد السلام بنعبد العالي. (2005). "تفكيك الميتافيزيقا". *مجلة أوراق فلسفية* (العدد13).
14. عمر التاور. (صيف 2014). "إستراتيجية التفكيك عند جاك دريدا الهدم والبناء". *مجلة تبيين، ع9* (3).
15. فرديناند دي سوسير. (1985م). *علم اللغة العام.* (يوئيل يوسف عزيز، المترجمون) بغداد ، العراق: دار آفاق عربية.

16. محمد علي الكردي. (2005). " جاك دريدا": وفلسفة التفكيك". *مجلة أوراق فلسفية* (ع13).

17. مراد وهبة. (2007). *المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية* (الإصدار ط5). القاهرة، مصر: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.

18. مراد وهبة. (2007). *المعجم الفلسفي،معجم المصطلحات الفلسفية* (المجلد ط5). القاهرة، مصر: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.

19. وليد عثماني. (2011). *"التفكيك، جينالوجيا، المقولة والمصطلح" ضمن الكتاب الجماعي: جاك دريدا، ما الآن؟ ماذا عن غد؟ الحدث، التفكيك، الخطاب* (المجلد ط1). (إشراف: محمد شوقي الزين، المحرر) لبنان، الجزائر، دار الفارابي، منشورات الاختلاف.

20. يول آخرون، دينيس سان- جاك، آلان ڤيالا. ، *معجم المصطلحات الأدبية*.

(*) يمكن الاستدلال على مجموعة من الفلاسفة الذين أبدوا آراءً بخصوص مسألة الكتابة "بدءًا بالفلسفة الإغريقية ممثلة" بـ "سقراط- أفلاطون" "أرسطو" و " الفلسفة المضادة" المتمثلة بـ "الفلسفة السوفسطائية"، وكذلك الفلسفة " الهيجلية" إلى غير ذلك من الفلسفات التي أبدت أراءً حول " الكتابة".

(**) الأصل: Origine: ويقصد به علة وجود شيء، بحث الأيونيون على الأصل ليس بمعنى البداية وإنما بمعنى العلة الأولى أو المبدأ الدائم أو الأساس، مراد وهبة، المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية، ط5، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2007، ص67.

(***) بابل: مدينة وقع فيها حدث تبلبل الألسن واختلاط اللغات عقابًا إلهيا لقومها، انظر لـ: الكتاب المقدس- العهد القديم- الفصل 11، سفر التكوين، دار الكتاب المقدس، ط4، الإصدار الثاني 1995، بعنوان برج بابل، وكذلك: الدراسة التي خصها "جاك دريدا" للحظة البابلية في كتابه: " إستراتيجية تفكيك الميتافيزيقا (حول الجامعة والسلطة، والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة)، تر: عز الدين الخطابي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص من: 245- 288 ، تحت عنوان: " أبراج بابل" (أو الترجمة كقضية فلسفية).

(*) التوسيم الأسطوري: هي نسق من الكتابة يكون فيه الخط ذا دلالات تشير إلى تمثيلات ذهنية معقدة لا ترتبط باللسان وإنما بأشياء وحوادث واقعية.

(**) التوسيم الرمزي: هو جزء من أجزاء التوسيم الأسطوري، يرتبط باستخدام الأشياء بصور مجازية مثل نموذج "اللوتسو"، انظر: ازوولدديكرو، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص ص 272، 273.

(***) التفكيك: في معناه الواسع "نقد للميتافيزيقا بدءا من أفلاطون حتى إدموند هوسرل وبول ريكور. والميتافيزيقا فرع من فروع الفلسفة يفترض وجود علل أو أسس أولية ونهائية تصدر عنها الموجودات على اختلافها فتقدر على تفسيرها وخلع معنى عليها مثال، متعال، جوهر المادة، هوية ذاتية ، حدث واع، طبيعة سابقة على التاريخ، وجود متصور انه حضور وفيما يرى دريدا تنطوي الممارسة المعيارية في الميتافيزيقا على فهم العالم عبر تعارضات ثنائية تفترض أن الطرف الأول فيها يسبق الثاني وانه أعلى منه منزلة". شاعت هذه الفلسفة في مرحلة البنيوية اللسانية ورائدها جاك دريدا. أنظر: ميشيل ريان، جوناثان كيلر، ريتشردروتي، كريستوفر نوريس، مدخل الى التفكيك، تحرير وترجمة : حسام نايل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2008، ص25.

(*) أفلاطون: (427- 347 ق.م) فيلسوف إغريقي من أهم أعلام الفلسفة الإغريقية، فلسفته مشروحة في شكل محاورات، تدور معالمها حول نظرية المعرفة، ونظرية الوجود، وهو أول من نبذ الكتابة ودعى إلى استخلاص الحقيقة من خلال الحوار/ الكلام؛ أي استخلاص الحقيقة باستعمال الإدراك العقلي الذي به نكتشف العالم المعقول أو عالم المثل أو عالم الماهيات الثابتة وهي المعرفة الموجودة في الرياضيات و الفلسفة فقط.

(**) جان جاك روسو: فيلسوف سويسري، من أعلام فلسفة النهضة الأوروبية المسماة بـ"فلسفة الأنوار"؛ فلسفته تدور معالمها حول تحرير الإنسان وإعادته إلى منبته الطبيعي، وهو كذلك من دعاة نبذ الكتابة وتفضيل الكلام عليها، وشجب الكتابة فلسفيا وممارستها من خلال الجانب الأدبي الذي كرسته كتبه خاصة "الاعترافات".

(*) ربما كان هذا الاحتقار الأفلاطوني للكتابة راجع – إذا صح اعتقادنا– إلى سببين: السبب الأول : مفاده عدم رغبة أفلاطون في إشاعة الحكمة وكشف أسرارها؛ ونحن نعلم أن من بين أهم الانتقادات التي وجهها أفلاطون على لسان سقراط إلى السوفسطائيين هو ابتذالهم للحكمة وممارستهم نوعا من الفلسفة الشعبية؛ وربما كان هذا الموقف الأفلاطوني من عدم رغبة في إشاعة الحكمة موقفا فيثاغوريا (الذين يؤثر عنهم سريتهم وحفظ تعاليمهم) تسرب إلى أفلاطون؛ وعليه فإن احتقار الكتابة راجع – بحسب فرضيتنا– إلى الفيثاغوريين أنفسهم وإن كان ذلك غير واضح ولا ظاهر في رسائلهم وتعاليمهم؛ السبب الثاني: (وهو مكمل للأول) مفاده أن الكتابة وسيلة لإزالة الفوارق بين البشر، وقد يصبح بفضلها البشر كلهم حكماء، لذلك آلى أفلاطون على نفسه محاربتها للإبقاء على التراتبية الاجتماعية الواضحة للعيان في كتاب الجمهورية، وجعل الحكمة مرتبة متعذرة على العامة ولا يطاولها إلا الخاصة.

(*)- الكتابة الأصلية وتعني الكتابة التفكيكية بمعناها الواسع وهي التي تدل على الامتداد اللغوي الجامع لكل من الكلام والكتابة بمعناهما الضيق.

(*)- الأثر: trace: وهو ما يتبقى من آثار شيء ما، وما يستدل على الشيء به؛ أي هو ما يشير في الآن ذاته إلى إمحاء الشيء وبقائه محفوظا في الباقي من علاماته، أي أنه المكان الذي يجمع الذي يجمع بنفسه ثنائية رحيل الشيء وبقائه معًا.

(**)-لقد استعمل "ايمانويل ليفيناس" نفس الصيغة الخاصة بمصطلح "الاختلاف" مع صيغة Existance بدل existence وهكذا « فإن التفكير في الحرف (a) يحيل إلى محنة المعنى. فإدراج حرف لم يغير فقط بنية المفردة لتعتبر شاذة وغريبة عن المعجم المتفق عليه، وإنما يؤدي في كينونته دلالة لا يستنفذها الخطاب في رمتها. فإدراج الحرف (a) في différance كما فعل ليفيناس في Existance يعبر عن الاستعمال اللافح للغة الذي لا ينفك عن الممارسة الرمزية والثقافية».

(***)المتعالي:transcendantal : يقصد به في اللاهوت«الذات الإلهية المتعالية» وفي «لاهوت العصر الوسيط وجود الله مفارقا للعالم المادي وللزمان. وفي الفلسفة المدرسية يشير المتعالي إلى صفات مثل: الوجود والحق والخير التي لا تندرج في منطق أرسطو تحت نوع معين، ولكنها تخترق الأنواع وتتجاوزها كلها لتشير إلى الله.

(*)- اللامتناهي: وهو «كمال الوجود أو الوجود فعلاً محضًا، ويقصره ديكارت على الله، يقول: "لما كنا لا نستطيع أن نتخيل امتدادًا بالغ العظم إلا ونتصور في الوقت نفسه إمكان وجود امتدادًا أعظم منه فإننا نقول إن امتداد الأشياء الممكنة لا محدودة.. تخصيصا لله وحده باسم اللامتناهي».

(*)- هو عنوان الفصل الأول من الباب الأول المعنون بـ "الكتابة قبل الحرف".